الدكتور السيد الجميلي

نساء النبي

دار ومكتبة الهلال

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للناشر
١٩٩٨

تطلب منشوراتنا من :

دار و مكتبة الهلال للطباعة والنشر

بئر العبد ـ شارع مكوزل ـ بناية برج الضاحية ـ ملك دار و مكتبة الهلال

تلفون: 601020 / 601002 / 8-7-823526 (01) مقسم: 1216 خليوي: 672366 (03)

فاكس: 603286 1 (961) ـ ص.ب: 5003 / 15 ـ بيروت لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[1].

---

(١) الأحزاب ٣٥. راجع تفسير القرطبي (١٤/ ١٨٥) والطبري (٢٢/ ٨) والبحر المحيط لأبي حيان (٧/ ٢٣٠) والفخر الرازي في الكبير (٢٥/ ٢١١) والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٢٥) وتفسير البيضاوي (٢/ ١١٦) ومختصر ابن كثير (٣/ ٩٤) وحاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٢٧٧) وزاد المسير لابن الجوزي (٦/ ٣٧٩) والتسهيل (٣/ ١٣٨) .

إهداء

إلى حبيبتي الصغيرة. . . دعاء. . . أسأل الله أن ينفث فيها الطهارة والتقوى والنجاح والفلاح، وأن يجعلها مناط طهر ونقاء، وأن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم. . . وأن يسدد خطاها ويهديها سواء السبيل، وأن يجعلها من المقبولين المرضيين. . . آمين، آمين.

والحمد لله رب العالمين.

السيد الجميلي

المقدمة

إن المرأة هي اللبنة الأساسية في المجتمع، والتي يعوّل عليها، ويقوم بها بناؤه، ومنها يشع دفء الحياة والحركة والحيوية حتى تتواصل ملحمة البقاء والاستمرار للجنس البشري على سطح المعمورة.

وليس مقبولاً ولا سائغاً ولا مُتصوَّراً أن يقوم صرح اجتماعي على الرجال وحدهم من غير اعتبار لمؤازرة النساء، ودفعهن لعزائم الرجال، ورفع هممهم، حيث إن ناموس الحياة يقوم على تكامل الأزواج في ازدواج فطري كالنور والظلمة، وكالذكر والأنثى حيث تتم المخامرة والمخالطة والمداخلة الحسية والوجدانية في كيان واحد يقوم على السكن والمودة والرحمة، وعليه تقوم أسس المجتمع السليم الرصين المتماسك اللبنات.

إن الفطر المستقيمة، والطبائع النقية تجعل من النساء شريكاً حيوياً في دورة البقاء، وملحمة الاستمرار في عالم الموجودات الإنسانية الراقية.

إن المرأة هي الأم الحنون الرؤوم، والابنة العزيزة الغالية، والزوجة الحليلة الخليلة، والأخت الشفيقة الرقيقة.

لذلك كان مبدأ الإسلام قائماً على إكرامها في كل أطوارها من أم، وابنة، وزوجة، وأخت في النسب، وأخت في الله، مع الحدب عليها، والصبر عليها، والقيام بواجبها خير قيام، وجعل هذا الإكرام واجباً مسنوناً أولاً، ثم من تمام المروءة والأريحية ثانياً.

ولا تستقر، ولا تستقيم أمور أمة من الأمم إلا بطهارة نسائها، وذكاء فطرهن، وقد كانت المرأة العربية مضرباً للأمثال في قوة الشخصية، وعزة النفس، ورجاحة العقل، وقوة الحجة، ولزوم المحجة، بالحرص على طاعة الله، ولزوم سنته، والقيام بأمره في شئونها الخاصة والعامة، بفكر واع مستقيم مستنير.

لكن الجريمة النكراء التي لا ينفع معها تسويغ أو تبرير، كانت وأد البنات، بدفنهن أحياءً صغاراً، فجاء الإسلام برحمته المسداة فقضى على هذه العادة المرذولة التي لطخت بسوادها صفحة العرب في الجاهلية الجهلاء.

ومن غير المقبول أن يقر الإسلام هذه الهمجية والحمق غير الإنساني الذي كان حيفاً وجوراً وقع على المرأة، ولم يكن لها ذنب فيه ولا جريرة.

لذلك فقد رفع عنها الإسلام إصر الجاهلية الجائرة، وقصف وثلم سيف الباطل الذي ظل ردحاً طويلاً من الزمان مشروعاً ومصلتاً على رقبتها، فرفع الله شأنها، وأحيا مواتها، وانتاشها من كرب الهلاك والهوان، ثم أعطاها حقوقاً كانت مغموطة، ومسلوبة منها، فأصبحت مصونة محفوظة مضنوناً بها، محتفىً بمكانتها.

فلما أعطاها الإسلام كل هذه العطاءات والمنح والهبات، كانت فرحتها به لا توصف، لذلك وقفت لتنافح عنه، وتذب عن حياضه، وتحرس بيضته لقاء وكفاء ما قدم لها، فكان للمسلمات المؤمنات مواقفهن المشهودة المشهورة التي يحفظها التاريخ لهن.

كانت أمهات المؤمنين، والصحابيات الأوليات أعطين نماذج وطرزاً فريدة على مكرورة في عالم المثل والقيم العليا النادرة الوجود العزيزة المثال.

وقد عمدنا إلى هذه الدراسة الجادة المتواضعة في شخصيات هؤلاء اللاتي وقفن بقوة وصلابة إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحوله، وقد بذلن كل نفس ونفيس في سبيل الذود عن بيضة الدين حتى كُنَّ في أتون المعارك، وفي رهج الميدان يسقين المرضى، ويداوين الجرحى، فكُنَّ لذلك مرضياً عنهن ، فقد كُنَّ ـ رضوان الله عليهن ـ طاهرات الذيول، عفيفات الأزُر، نظيفات الذيول، مبرآت من المشاين التي تلحق سواد النسوة، بريئات من أرجاس الهوى، وحوب النفس.

وعلى الرغم من ندرة المصادر، وقلة المراجع في هذا الصدد، فإنّ كثيراً من أخبارهن وسيرهن لم يصل إلينا، وهذا يكون كفيلاً عادة بالقطيعة التاريخية، وهو ما يكون مسوغاً ومبرراً للتقاعس والتدابر والتهاون في توفية دراسة وترجمة جامعة دقيقة للقصور الجلي في المصادر الأساسية.

لكننا لما كنا عقدنا العزم الأكيد على ذلك، استعانة بالله ، وتوكلاً عليه، وثقة بلطفه، لم يفتّ في ساعدنا يأس أو تدابر لصعوبة المسألة مما جعلنا نستسهل الصعب، ونستمرىء الشاق، ولا نكاد نشعر بأدنى حرج أو عنت، وهو المظنون أن يكون من أهم المعوقات لاستيفاء دراسة ندرت مصادرها ومراجعها، وشطّت نواها، ونأت ديار غربتها عن عالم التأليف والتصنيف.

وقد حرصنا على سرد المراجع في الهامش ما وجدنا سبيلاً وداعياً إلى ذلك، حتى يرجع من يشاء إليها لمزيد من البسط والتفصيل.

ولئن كانت المصادر بالندرة التي ذكرنا آنفاً، فقد كثر تعويلنا على أصول منها معتبرة لها مكانتها العلمية والتاريخية في مجال التراجم.

هذا جهد المقل، ونعتذر لقرائنا عن قلة الحيلة وقصورنا وتقصيرنا عن بلوغ النهمة التي نرجوها ونصبو إليها، فالرحلة شاقة، والطريق وعرة، والزاد قليل، والقضاء عسر، والزمان جديد، وإن في كرم الكريم وسعة الصدر منادح للتجاوز والعفو والمسامحة.

فما كان من تسديد وتوفيق فمن الله تعالى، ولطفه وبره وإحسانه، وما كان من سهو أو غفلة أو نسيان فمن الشيطان ومني، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه. .

السيد الجميلي

المعادي في ربيع الآخر ١٤١٤ هـ
أكتوبر ١٩٩٣م.
٩٦ ش ١٠٥ بالمعادي

(١)

خديجة بنت خويلد [١]

(٦٨ ـ٣ ق . هـ .) (٥٥٦ ـ ٦٢٠ م.)

« والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء »[٢].

هي السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى من أكابر قريش، وهي أم المؤمنين، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولى، تكبره بخمس عشرة سنة، وكان مولدها سنة ثمان وستين قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) مصادر ومراجع الترجمة : تاريخ الطبري (٢/ ٣٤) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢) والطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٧) وما بعدها، والإصابة ت (٣٣٣) وتاريخ الخميس(١/ ٣٠١) وأنساب الأشراف للبلاذري (١/ ١٠٤).

(٢) مسند الإمام أحمد (٦/ ١١٨) و (٣/ ٨٩) .

وكانت ولادتها بمكة ، ونشأت وترعرعت دوحتها في بيت الأشراف، لأنها كانت نسيبة ذات شرف وفخار آباءً وأجداداً.

عاشت في بيئة ميسورة لم تعرف الإعسار، ولم تدركها فاقة، فكان ثراؤها معروفاً بين بطون العرب، لم يخف عن أحد كالشمس المتألقة في وهج الظهيرة من أموال وتجارة وعروض واسعة.

وقد مات أبوها في حرب الفجار، وقد تزوجت من عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي فمات وترك لها فتاة في سن الزواج، ثم تزوجت أبا هالة بن زرارة، وتوفي أيضاً وترك لها غلاماً هو هند بن أبي هالة.

كانت السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ تبعث كل عام بتجارة كثيرة إلى بلاد الشام، وكانت تستأجر الرجال ليقوموا على هذه الشئون بأموالها، وكانت ـ رضي الله عنها ـ ذات بصر بالرجال وتقويمهم ومعرفة مدى دربتهم وخبرتهم بالتجارة مع النزاهة والشرف والقناعة والأمانة وعفة النفس، وارتفاع الهمة والاخلاص في العمل.

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة من عمره، وهو في ريعان الشباب، وصدره الباكر، خرج في تجارتها إلى سوق بصرى بحوران ليتجر لها، ثم عاد غانماً رابحاً، وكانت هي في ذلك الوقت في الأربعين من عمرها، فلفت نظرها ـ وهي البصيرة بتقويم الرجال وسبر أغوارهم ـ ما كان عليه من خلق قويم، وطهارة وعزة نفس، وحياء وأمانة، فمالت نفسها إليه، ورغبت فيه وتمنت أن يكون زوجاً لها.

وفي حياء بالغ، عمدت إلى اختبار مشاعره نحوها فبلغها كل خير، وشجعها هذا على الطلب إلى أحد الأقرباء منها أن يعرضها عليه للزواج منها

والبناء عليها، فقوبل هذا العرض الطيب بالموافقة منه صلى الله عليه وسلم، فما كان منها إلا أن أرسلت إلى عمها عمر بن أسعد بن عبد العزى، فحضر، وتم على الفور زواجها منه صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك قبل أن يبعث رسولاً، وقبل نبوته، وقد رزقه الله منها بالقاسم، وعبد الله، وهو الطاهر والطيب، ثم زينب ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

وقد كانت تنجب بمعدل كل عام ولداً أو بنتاً، أي تضع كل عام، وكانت لذلك تسترضع لأبنائها وبناتها، وقد حظيت بشرف عظيم رفيع حيث صارت أمًّا للمؤمنين، إذ إنه لما بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت أول من أسلم من النساء والرجال على حد سواء، بل إنها أول من تلقى خبر الوحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تصلي معه سراً بادىء الرأ ي.

كانت أنجبت من زوجها الأول جارية ومن الثاني غلاماً اسمه هند، وكانت تكنى بأم هند، قبل أن تتزوج من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأولاد النبي عليه الصلاة والسلام كلهم منها، ما عدا إبراهيم بن مارية القبطية، وقد توفيت رضي الله عنها بمكة سنة ثلاث قبل الهجرة. فرضي الله عنها وأرضاها.

إن حياة اليتم تجعل اليتيم في غربة من المجتمع والناس، وفي غربة من الأهلين في بعض الأحيان وليس بعد الأم والأب رفيق أو شفيق، إذ إن الأثرة هي الفطر المطبوع عليها أكثر بني البشر . وأجمل شوقي ـ رحمه الله ـ وأبدع عندما قال :

فإذا رحمت فأنت أمٌ أو أبٌ هذان في الدنيا هما الرحماءُ

فاليتيم المحروم من أمه وأبيه، حزين مكتئب مكسور الخاطر، إذ إنه يكون

شاعراً بأنه مزايل للناس وهو بعيد منهم، فلا أحد يمكن أن يسد مسد الأب الرفيق، ولا إنسانة تسد مسد الأم الشفوق، فإن أصاب الابن قذى تقطعت كبد أمه، واحترق قلب أبيه، وليس لأحد من الناس غيرهما هذه الخاصية، وكم تمنى إنسان أن يفقد كل شيء، وأن يضحي بكل نفس ونفيس فداءً لابنه لأنه حشاشة القلب. . . .

لقد مات عبد الله بن عبد المطلب وترك السيدة البارة آمنة بنت وهب حاملاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا لم ير أباه، ولم يره أبوه، فتقر به عينه، وليس في الدنيا كلها حنان يعوض حنان الأب، وحدبه، وبره، وإشفاقه.

ثم إن أمه آمنة بنت وهب قد أدركها الموت، فتوفيت هي الأخرى وعمره ست سنوات، فكانت وفاتها ثالثة الأثافي، حيث تظاهرت الظروف القاسية المريرة، وتواترت الهموم على الطفولة البريئة، فبينا يتمارى صبية بني هاشم وغيرهم بين آبائهم وأمهاتهم وذويهم، إذا بالصبي الصغير محمد بن عبد الله لا يجد صدر أب حنون، ولا قلب أم مشفقة تحنو عليه في المساء، وترعاه في الصباح، ويشعر باليد الحانية تربت على وجهه المشرق الوضاء تهدهده وتلاعبه وتداعبه. . افتقد كل هذا، وحُرِمَ من كل هذا، ولم يكن هناك بد من إلحاقه وانتقاله إلى جده عبد المطلب، ذلك الشيخ العجوز الفاني. لكن حفاوة الجد العجوز لا يمكن بحال أن تكون بديلاً عن حنان الأب وبره وحَدْبه. . . كذلك فإنه لا يزال محروماً من حنان الأم التي لا عِوَض ولا بديل لها أبداً.

كان كلما خلا بنفسه صلى الله عليه وسلم، شعر بالحزن العميق، والأسى البالغ، والنار المحرقة التي ترعى الكبد من لوعة فراق الأبوين في فجر الحياة ومع

بداية أنفاس الحياة الأولى، لكنها إرادة الله تعالى ومشيئته، فإذا أراد الله تعالى شيئاً لا يمكن أن يمنعه شيء.

إن الصبي لم تبرح مخيلته طرفة عين صوت أبيه الذي لم يره، وكم كان يود أن يراه، وأن يكون عوناً له على الأيام، وأن يحظى بحنان الأبوة، ودفئها.

كما أن صدره النقي البريء تتصارع فيه مواجيد الشوق منذ ثماني عشرة سنة، حيث لم ينس بل لا يزال ماثلاً بإزائه في كل لحظة ذلك المنظر الرهيب المروع، وهو يودع حشاه وفلذة كبده أمه في حفرة بالأبواء، ومنذ تلك اللحظة وهو مكسور الخاطر، مهيض الجناح ، مشغول بالهموم والأتراح، تزايله الأفراح ولا تقاربه تسرية أو سلوان، وهو في شرخ الصبا الذي يكون عادة محصناً ضد الهموم والأنكاد.

ولذلك ولهذه الأسباب كان كثيراً ما يخلد إلى نفسه، ويسرح بخواطره إلى تلك الأيام الخوالي الدارسة المنصرمة في حقبة منصرمة حيث كان في حضن أمه الدافىء بمكة، ثم إذا به يصير في ديوان الحياة وحيداً كريشة في مهب الريح.

ثم إن جده عبد المطلب كان شفوقاً عليه، مهموماً لأجله، إذ إنه كان يدرك تماماً ما يجول بخاطر حفيده، ويحتوي كيانه ويستولي عليه من أنكاد تصارعه ويصارعها، وكم حاول الجد العجوز أن يمسح عن جبين حفيده لفحات الحزن والكآبة، بنفحات الود والحدب والحنان، وكم حاول أن يمسح عبرة الأشجان من عينيه الواكفتين اللتين قد كحلهما السهاد والأرق.

لكن لم تقدر عاطفة الشيخ الطاعن على مدافعة هذه الهموم التي تدهم، والنوائب التي تنوب، والنوازل التي تنزل بعقوته، وتلم بحجزته، فقد كان الجرح غائراً، والألم مبرحاً ممضاً، لكن شبح المنية رفرف بجناحيه مرة أخرى على بيت

الجد الكبير والشيخ العجوز ليلم به، وشعر عبد المطلب بقرب الأجل، ودنو ساعة الرحيل، وأحس بأن ساعة الفراق صارت وشيكة، فكان شغله الشاغل حفيده محمد، فدعا ابنه « أبا طالب» ليوصيه بمحمد ابن أخيه «عبد الله» خيراً.

ثم كانت ثالثة الأثافي، ونازلة النوازع، هي موت الجد، وتركه ابن ابنه وحيداً وقد فقد ثالث الأحبة الثلاثة جده بعد أبيه وأمه.

ترحل الصبي إلى بيت عمه، وانضم إلى أسرته، لكن وجدانه كان مشحوناً، وضميره كان مشدوداً إلى الذكريات القديمة الخالية في رعاية أمه، ثم ضياع أمله، وفقد القلب الحنون الذي أدرج في شق محدود في الأبواء، فانطفأ به شهاب السعادة وأظلمت شمس هنائه وفرحه ومرحه في طوْر الطفولة، ثم إنه بموت جده تنطوي صفحة أخرى من حياته، وهو في كل هذه الأطوار من التحولات الدقيقة تتحول أجواؤه النفسية من سوء إلى سوء حيث صار محوطاً بالإحباط، ومكتنفاً بالضيق، بينما يلهو الصبيان من حوله، ويتمارون فرحين في ملاعب حداثتهم. . .

ظل في رعاية عمه مع أبناء عمه سبع عشرة سنة، وعمه كان أميناً عليه حسبما أوصاه أبوه به، فكان يتعهد ابن أخيه كواحد من أبنائه ضنيناً به، حريصاً عليه، لم يقصر في جانبه في قليل أو كثير. .

لكن أبا طالب كان عائلاً لأسرة كبيرة، يشقى ويكدح في سبيل لقمة العيش، فما إن وجد ابن أخيه قد بلغ مبلغ الرجال، وأصبح اعتماده على نفسه ممكناً، بل وواجباً لمن هو في مثل سنه، فإذا به يناديه ذات يوم في مطلع الشمس عن رحلة مرجوة الخير تعمد الى بلاد الشام، ويرجو أن ينشط ويطرق أسباب

العمل في التجارة حتى ينتقل إلى عالم الحياة الرحب الفسيح المأهول، ويشق سبيل الكفاح الذي لا بد له منه. وقد قال عمه أبو طالب له فيما قال :

« يا بن أخي، أنا رجلٌ لا مال لي، وقد اشتد علينا الزمان، وألحَّت علينا سنونٌ منكرة، وليس لنا مالٌ ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً يتجرون في مالها، ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك، وإن كنت أكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من يهود . . . !!

وقد بلغني أنها استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته ، فهل لك في أن أكلمها؟»

قال محمد : ما أحببت يا عم. . .

وفي رواية الإمام الطبري في تاريخه المشهور الذي هو أثبت التواريخ وأجمعها وأدقها أن السيدة خديجة رضي الله عنها هي التي عرضت عليه ذلك.

وقد ورد في الطبقات الكبرى (١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ خمساً وعشرين سنة قال له أبو طالب : أنا رجلٌ لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وهذه عير قومك، وقد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، فأرسلت إليه في ذلك، وقالت له : أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك. أهـ . بتصرف.

ثم يقول بعد ذلك : فخرج إليها ـ أي أبو طالب ـ فقال : هل لك يا خديجة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٢٩) بتحقيق الدكتور إحسان عباس طبعة دار صادر بيروت.

أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربع بكار، قال : فقالت خديجة : لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألت لحبيب قريب (١)؟.

وروي أن أبا طالب قال لابن أخيه : هذا رزقٌ ساقه الله إليك.

ثم انطلق محمد صلى الله عليه وسلم ومعه غلامها ميسرة، حتى قدما (بصرى) من بلاد الشام فنزلا في ظل شجرة، فقال نسطور الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي(٢). ثم قال لميسرة : أفي عينيه حمرة؟

قال : نعم، لا تفارقه، قال : هو نبي، وهو آخر الأنبياء.

ثم يذكر لنا ابن سعد في طبقاته، أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان باع سلعة له، فوقع بينه وبين رجل تلاحٍ فقال له : احلف باللات والعزى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط، وإني لأمر فأعرض عنهما، فقال الرجل : القول قولك، ثم قال لميسرة : هذا والله نبي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم.

ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان منعوتاً وموصوفاً بأجمل وأكرم النعوت وأطيب الصفات.

ثم إن هناك من المعجزات ما وقع له صلى الله عليه وسلم ورآه ميسرة رأي العين، لما كانت الهاجرة، ويشتد الحّر، يرى ميسرة مَلَكَيْن يُظلان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشمس.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٣٠).

(٢) وكان نسطور الراهب عالماً بالكتب القديمة وبالكتاب المقدس، ولذلك كان قوله هذا إرهاصاً وتبشيراً بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته.

ثم إن تجارتهم كانت رابحة ضعف ما كانوا يربحون، فلما أن فرغوا من تجارتهم، وقضوا نهمتهم، وانتهوا منها، أزمعوا العودة، ثم قفلوا راجعين.

ثم انهم لما رجعوا فكانوا بحر الظهران قال ميسرة : يا محمد، انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله على وجهك، فإنها تعرف لك ذلك.

لقدكان ميسرة مقوداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة حبه له وتعلقه به ، فقد ألقى الله على محمد المحبة من ميسرة فكأنه عبد له أو خادم يأتمر بأمره ، وذلك لما رآه ميسرة من صبوح وجهه ، وكريم عنصره ، ومرضي أخلاقه صلى الله عليه وسلم .

وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة، وكانت خديجة وقتذاك في علّية لها ، فرأته وهو على بعيره ، ونظرت بعينيها ملكين يظلان عليه ، فأرته نساءها ، فعجبن لذلك .

وكان لقاءً جليلاً لما أن دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حدثها بما كان من أمر الرحله ، وخبرها بما ربحوا من تلك الرحلة ، فسرت بذلك سروراً عظيماً .

ثم إن غلامها ميسرة دخل عليها وأخبرها بما رأى من دماثة أخلاقه ، وكريم عنصره، وحلمه واتزانه وحصافته، وأخبرته هي الأخرى بما رأت ، فقال ميسرة : قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام .

ثم أخبرها ميسرة بما قال الراهب نسطور ، كذلك فقد أخبرها بما قاله الرجل الآخر الذي خالفه في البيع ، وقد أبدت إعجابها بذلك ، ولا سيما بعد أن وجدته قد ربح في تجارتها ضعف ما كانت تربح ، ولذلك فقد أضعفت له ما سمت له من الأجر .

نظراً لأن السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي

كانت امرأة حازمة ، جلدة، شريفة مع ما أراد الله تعالى بها من الخير والرفعة والكرامة، فهي أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكان رجال قومها حريصين على نكاحها لو كان ذلك مقدوراً عليه، لقد رغبوا فيها جميعاً لسري خلقها وشرفها وحسبها ونسبها في قومها، فضلاً عن يسارها وثرائها من تجاراتها الرابحة، لكنها رغبت عنهم جميعاً ورغبت في محمد بن عبد الله.

لذلك فقد أرسلت إليه نفيسة بنت منبه لتكلمه في هذا الأمر وتدعها تتحدث بنفسها عما جرى في هذا الصدد. تقول نفيسة بنت منبه مبعوثة السيدة خديجة : ـ « فأرسلتني (أي خديجة) دسياً إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقلت : يا محمد، ما يمنعك أن تَزَوَّج؟ فقال : ما بيدي ما أتزوج به، قلت : فإن كُفيت ذلك، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ فقال : فمن هي؟ قلت : خديجة، قال : وكيف لي بذلك؟ قالت : قلت : عليَّ، قال : فأنا أفعل، فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت الساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمومته، فزوجه أحدهم، فقال عمرو بن أسد : هذا البُضع لا يُقرع أنفه، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكانت هي رضي الله عنها بنت أربعين سنة، حيث كانت وُلِدَت قبل الفيل بخمس عشرة سنة (١).

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٣٢) وفيه أيضاً أن عَمْراً بن أسد بن عبد العزى بن قصي زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أباها مات قبل حرب الفجار، وكان عمرو بن أسد شيخاً كبيراً لم يبق لأسد لصلبه يومئذ غيره، ولم يلد هو شيئاً، وفي رواية ابن إسحاق عن الزهري أن أباها هو الذي زوجها. وهذه الرواية مرجوحة.